المنظومة الحلولية وعلاقة الدال بالمدلول:

وإشكالية علاقة الدال بالمدلول مرتبطة تماماً بظهور المنظومة الحلولية الكمونية الواحدية، التي تلغي المسافة بين الخالق والمخلوق (وبالتالي بين الإنسان والطبيعة، وبين الدال والمدلول). فالحضارة الغربية الحديثة هي حضارة علمانية تكاد تكون نماذجية في علمانيتها، تنطلق من الإيمان بزمانية (وتاريخانية) ونسبية كل شيء، ولذا فهي لا تؤمن بقيم مطلقة (دينية أو أخلاقية أو إنسانية)، مما يعني فصل كل القيم عن الدنيا، على أن تتم إدارة العالم بمنظومات عقلية مستمدة من عالم الطبيعة/ المادة. ونظراً لاستحالة هذا (فالطبيعة/ المادة لا تعرف القيمة ولا تكترث بالإنسان)، قام الإنسان الغربي بعلمنة بعض القيم المسيحية المطلقة وجعلها أساساً لمنظومته المعرفية، مثل كرامة الإنسان ومركزيته، وضرورة التمسك بالقيم الأخلاقية المطلقة والضمير الفردي... إلخ، وادعى أنها قيم مستمدة من قوانين العقل والطبيعة الكامنة في المادة أيضاً، وليس من المنظومة المسيحية. أي أن الإنسان الغربي آمن بوجود كلٍّ مادي ثابت متجاوز، له معنى هو مصدر تماسك الكون ومصدر معقوليته، كلٍّ مادي متجاوز لحركة المادة الذرية، ويمكنه أن يشكل مرجعية للإنسان، بحيث تظهر مرة أخرى ثنائية الثابت والمتحول، والإنسان والطبيعة (وفي نهاية الأمر ثنائية الخالق والمخلوق). ولذا يمكن للدوال أن تشير إلى مدلولات، ويمكن للغة أن يكون لها معنى، ويمكن التوصل إلى معيارية من خلال الدراسة (العقلية والمادية) للواقع المادي (وهذا هو عصر التحديث والثنائية الصلبة والمادية القديمة).

ولكن كان هناك من المفكرين الغربيين من أدركوا أن ثمة تناقضاً عميقاً في مثل هذا الموقف: فما مصدر مُطْلَقية هذه المطلقات وثنائية هذه الثنائيات؟ ولم لا تسقط هي ذاتُها في قبضة الصيرورة والضرورة والنسبية والتاريخانية، بحيث لا يبقى سوى الإنسان الطبيعي، الذي يعيش حسب قوانين الصيرورة الواحدية التي لا تُفرِّق بين الإنسان والطبيعة؟! وأدرك هوبز من البداية أن ثمة مشكلة «هوبزية» عميقة